تمثُّلات الفضاء الإمبراطوري في الرواية الأوروبية عند إدوارد سعيد.

Representations of imperial space in the European novel by Edward Said

أ / عبد الناصر قاسمي.

قسم العلوم الاجتماعية- جامعة الشهيد حمَّة لخضر- الوادي(الجزائر)
البريد الإلكتروني: asminacer@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2020/04/21 تاريخ القبول: 2020/05/06 تاريخ النشر: 2020/11/30

الملخص:

تُسلّط هذه الدراسة الضوء، على رؤية المفكر والناقد العربي إدوارد سعيد المهمة، حول طبيعة العلاقة التي انعقدت بين الرواية الأوروبية، وبين الفضاء الإمبراطوري والمد الإمبريالي خلال القرن التاسع عشر. واستكمالاً لما كان قد بدأه في "الإستشراق"، يواصل إدوارد سعيد في كتابه "الثقافة والامبريالية"، مساءلة الثقافة الغربية عموماً، والسرد الروائي الأوروبي تحديداً، من خلال قراءاته الاستثنائية والمثيرة، لأشهر الرّوايات والروائيين الأوروبيين، أمثال جوزيف كونراد وروديار كبلينغ وجين أوستن وألبير كامو وغيرهم. ويهدف إدوارد سعيد من وراء ذلك، للكشف عن الإمبريالي المتواري خلف جماليات السرد الروائي تحديداً.

الكلمات المفتاحية: السرد الرّوائي؛ الإمبراطورية؛ الكولونيالية؛ الثقافة الغربية؛ كونراد.

***Abstract*:**

This study highlights the important vision of Edward Said, about the nature of the relationship between the European novel and imperial space and the imperialist tide during the nineteenth century. After his thesis of Orientalism, Edward Said continues in his book Culture and Imperialism, questioning Western culture generally, and the European novel in particular, through his exciting readings, to the European novels and novelists, such as Joseph Conrad, Rudyard Kipling, Jane Austen and Albert Camus…etc. Edward Said aims to reveal the hidden imperialism behind the aesthetics of the novel in particular.

key words: the novel, narration, imperialism, colonialism, western culture, Conrad.

مقدمة:

إن الزَّوبعة التي أثارها كتاب ((الإستشراق)) (1978)، لم تثن عزيمة المفكر والناقد العربي إدوارد سعيد، عن متابعة تقصيه لمختلف أشكال الهيمنة التي تمارسها سلطة ما، أو مجال ثقافي أو قومي متفوق على آخر، واكتناه الأسئلة حول الأصالة والحرية والتحرر، التي طرحها في جل أعماله التي عُرفت بمقاومتها للتسلّط والتميز والتعصب، ولسائر الأمراض الثقافية، التي أخفقت الحداثة وما بعد الحداثة في معالجتها.

وفي كتابه ((الثقافة والامبريالية)) (1994) يستكمل إدوارد سعيد، الحجة المركزية التي بدأها في ((الاستشراق))، حول العلاقة بين القوة والمعرفة. كما يوسع فيه مشروعه النقدي، متحدياً بشجاعة وإصرار، موجة الانتقادات والإهانات وحتى التهديدات التي طالته، ممن لم تتسع صدورهم لقبول رأي " آخر"، تجرأ على التمرّد عن سلطة المعرفة الاستشراقية وسطوة الإمبراطورية، التي لطال ما عمل ألمع المستشرقين على تشييدها وتحصينها. كان أعنفها تلك التي قادها برنارد لويس(*)، وهو بالضبط ما زاد مؤلف ((الاستشراق)) يقيناً بصحة استنتاجاته، وإصراراً على مواصلة تفكيكه للمقال الاستشراقي والامبريالي، محللاً استراتيجيات الفكر الغربي، في تعامله مع غير الغربي، وإبراز أثر هذا الفكر - المفرغ من إنسانيته - في عديد الحقول المعرفية.

لقد شرع إدوارد سعيد، في توسيع أطروحة الاستشراق، لتشمل فضاءات جغرافية أكثر رحابة، تتجاوز الشرق. كما استثمر حقولاً بحثية وإبداعية أخرى، كالشعر والرواية بصفة خاصة، نظراً لمواكبة هذه الأخيرة للتوسع الامبريالي، وصعود نجم الإمبراطورية، مقتفياً أثر "السرديات الجليلة" أو الكبرى، التي أعلن ليوتارد (J.F Lyotard) انهيارها. وعلى هذا الأساس، يجمع إدوارد سعيد في كتابه "الثقافة والإمبريالية"، بين التحليل النقدي للنصوص والمنهج المقارن، مشدداً على أهمية القراءة التأويلية، بحثا عن المسكوت عنه المطمور بالألوان الفنية المضللة، التي تحجب الوجه الإيديولوجي عن تلك النصوص. فهو لا يؤيد مقولة جاك دريدا (Jacques Derrida)، القائلة بأنه لا شيء خارج النص، ولا بفكرة مايكل ريفاتير (Michael Riffaterre) عن أن النص مكتمل بذاته. ويقول سعيد في خصوص هذه النقطة: « يبدو لي أن من المهم التشديد على حقيقة أن الأعمال الأدبية، بصرف النظر عن كونها أي شيء آخر ليست مجرد نصوص، فهي متكونة في الحقيقة على نحو مختلف، وتمتلك قيما مختلفة، و ترمي إلى القيام بأشياء مختلفة، وتوجد في أجناس مختلفة، وهلُم جراً ».[1]

إن الوقوف عند الأدب المحض - الذي لا ينكر سعيد وجوده - هو مسألة إيديولوجية، لإخفاء استجابتها لوضعيات ثقافية أو تاريخية خاصة، كمسألة الإمبريالية. ومن هذا المنطلق، لا يخفي إدوارد سعيد نيته وطريقته في تسطير كتابه "الثقافة والامبريالية"، بالقول « إن طريقتي هي أن أركز بقدر المستطاع على أعمال فردية، أن أقرأها أولا، كنتاج عظيم للخيال الخلاق أو التأويلي، ثم أن أجلو كونها جزءاً من العلاقة بين الثقافة والإمبراطورية ».(2)

إن كتاب "الثقافة والإمبريالية" كتاب شامل، يتسم بطابع الموسوعية، فهو يجمع بين التاريخ والجغرافيا والأدب والنقد والفن، و يسرد تفاصيل عن الشرق كما عن الغرب، في الماضي و في الحاضر، فهو لا يتبنى المفاهيم الجاهزة، بل يخلقها أو ينميها. لقد وصف المؤلف كتابه بأنه "منفي"، لاعتبارات تتعلق بانتمائه لكلا العالمين، أو لكلا ضفتي الفالق الامبريالي على حد تعبيره. وأُفضل شخصياً أو سأسمح لنفسي بتعبير آخر، بأن أصف كتاب " الثقافة والإمبريالية " بنفس الوصف الذي أطلقه سعيد نفسه، على كتاب فرانز فانون (Frantz Fanon)." المعذبون في الأرض" على أنه كتاب هجين،(**) بل أن كتاب إدوارد سعيد المذكور، هو أكثر هجنة بكثير من كتاب فانون.

وشائج الرواية الأوروبية بالفضاء الإمبراطوري :

إن الرواية كشكل من أشكال الإبداع الفني والجمالي، لا تنفصل عن الواقع الذي وجدت فيه، فمن السهل على قارئ الرواية، أن يحيط بالظروف التاريخية والثقافية والسياسية والاجتماعية، التي رافقت تلك الرواية، ناهيك عن الموضوعات التي تطرحها. ومن منطلق السلطة التي اكتسبتها الرواية، فهي تتخذ حتماً مواقف صريحة أو مبطّنة من تلك المسائل المطروحة.

وإذا أخذنا الرواية الأوروبية في ظل تصاعد المدّ الإمبراطوري، خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، فإنها غالباً ما كانت تشير إلى نفسها، وإلى انخراطها في الفضاء الإمبريالي، وإلى ارتباطها بمشاريع التوسع الأوروبي، والتنافس على امتلاك المزيد من الأراضي فيما وراء البحار، وإلى التورط في ممارسات لاإنسانية تجاه الآخر، الذي أُنكر وجوده وأُسكت إلى الأبد.

وهذا ما حاول إدوارد سعيد إبرازه، في قراءته للرواية الأوروبية، التي كشفت متونها وأشكالها، على أن الرواية في جل مراحل تطوّرها، كانت ولا زالت تدعم النفوذ الإمبراطوري وتعزّز الوجود الامبريالي، إذ « لا ينبغي أن تفصل هذه المسائل، عن فهمنا لرواية القرن التاسع عشر، تماما كما أن الأدب لا يمكن أن يُبتر عن التاريخ والمجتمع ».(3)

إنَّ الأعمال الأدبية في نظر إدوارد سعيد، خصوصاً تلك التي يكون موضوعها المباشر والصريح هو الإمبراطورية، تنطوي على جانب مشوّش بل يكاد يكون عصيّاً عن التناول، أو تندسّ فيه الروابط بين النصوص الثقافية والميول الإمبريالية، في إطار مشهديّ سياسيّ محفوف بالمشكلات ومشحون عاطفياً.

والسؤال الذي يدور في خُلد إدوارد سعيد، هو ماذا علينا أن نقرأ ؟ وكيف نقرأ ؟ وما الذي نصنعه بتلك القراءة؟ ذلك هو الشكل التام للسؤال النقدي، الذي ينبغي أن يوجه للرواية الأوروبية.(4)

لقد اتخذ إدوارد سعيد قراره، وحدّد إجابته، فيما يتعلّق بمسألة النظر إلى تلك الرّوابط، التي انعقدت بين النصوص الجمالية والثقافية، وبين الإمبريالية والممارسات الكولونيالية. فهو يدفع باتجاه إعادة قراءتها، وإلى ضرورة نقدها وتأويلها، والتفكير في بدائل مناسبة لها، معتقداً بأنه لا يمكن تركها ماثلة هناك، مبتورة عن سياقها الثقافي والتاريخي، دون نقد أو تمحيص. مبرزاً أن أحد الأسباب التي دفعته إلى كتابة " الثقافة والإمبريالية "، هي إظهار التنافس الأوروبي المحموم حول السيطرة على الأراضي فيما وراء البحار، ليس على الصعيد الجغرافي فحسب، بل وفي أعمال فنية وروائية كثيرة.

إن إحدى مؤشرات أو دلائل إدوارد سعيد، على تواشج الثقافة الغربية بالإيديولوجيا السياسية، ما تنطوي عليه رواية رديارد كبلينغ (Rudyard Kipling) من نفحات جمالية ومقدرة إبداعية، في أسلوب عرضها الشيّق للواقع الهندي، المتجوهر في خصائص ثابتة ولا متغيرة، تعمّد كبلينغ أن يراها هكذا، ليس لأنه يتمتّع بقدرات خارقة، بل لامتلاكه الأفضلية على من يكتب عنهم. ويستمد كبلينغ سطوة سرديّته، في أن هذا الأخير « لا يكتب من وجهة النظر المسيطر، لرجل أبيض في ممتلكات استعمارية فحسب بل كذلك من منظور استعماري هائل، كان اقتصاده وأداؤه العملي وتاريخه جميعاً قد اكتسب مقام حقيقة من حقائق الطبيعة ».(5) وإحدى هذه الحقائق، أن البشر الملونين يشكل وجودهم عبئاً على عاتق الرجل الأبيض، المسؤول الأول والأخير عن رعاية من لم ينعموا في بشرتهم وعرقهم، بالقدرة على رعاية أنفسهم. هذه القراءة التي يقدمها إدوارد سعيد لعمل كبلينغ - وهي ليست الوحيدة - والتي يسبر فيها أغوار الثقافة الغربية، تهدف إلى إبراز مقدرة هذه الثقافة، على تحويل الرؤى والتصورات عن الواقع، إلى ما هو أقوى من الواقع نفسه بالمعنى الفينومينولوجي، الذي يَرى حقيقة الشيء، من خلال مرآة ذاته الناظرة إلى ذلك الشيء.

ولا يتردّد إدوارد سعيد - كما أسلفنا - في الإفصاح عن طريقته في التعامل مع الرّواية الأوروبية قائلاً: « إنّ طريقتي هي أن أركّز بقدر المستطاع على أعمال فردية، أن أقرأها أولاً كنتاج عظيم للخيال الخلاَّق أو التأويلي، ثم أن أجلو كونها جزءاً من العلاقة بين الثقافة والإمبراطورية [...] إن الثقافة والأشكال الجمالاتية التي تنطوي عليها، لتُشْتقُ من التجربة التاريخية، وهي في واقع الأمر أحد المواضيع الرئيسية لهذا الكتاب ».(6)

لعلّ أهم نقاط القوة في دراسة إدوارد سعيد هذه، هو تركيزه الواضح على فهم وتحليل، طبيعة العلاقة بين الإمبريالية والكولونيالية وضحاياها من جهة، وبين السرد الروائي الأوروبي الحديث من جهة أخرى، في محاولة منه لفهم العالم الذي نعيش فيه، لأنه عالم - كما يراه سعيد - هو من صنع الإمبراطورية والإمبريالية، "التي لم يَنجُ منها شيء" على حد تعبير سعيد نفسه.

ومن هذا المنطلق، تشكلت صرامة منهجه في التعامل مع النص، متجاوزاً الأساليب المغلقة التي يصفها بالهزيلة، مثل ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة والماركسية بشكل خاص، لأنها نظريات تحصر مجال فهم الأدب في سياقه المحلي المباشر، وبالتالي فهي تحجب نفسها، عن رؤية التجربة الإمبريالية والاستعمارية ومثيلاتها، في تكوين السياق الفعلي للعمل الأدبي وللرواية الأوروبية بشكل خاص. ثم أن قراءاته وتأويلاته للرواية الأوروبية، لا تتوقف على مستوى المضمون، بل تلاحق الأعمال الأدبية على صعيد تشكيلاتها النصية، فإدوار سعيد لا ينساق وراء تلك النظريات أو يتماهى معها، حتى وإن « أعتدنا بعد لوكاتش وبروست، على التفكير بحبكة الرواية وبنيتها بوصفهما يتشكلان رئيسياً بفعل الزمانية، إلى درجة أننا أغفلنا وظيفة الفضاء، والجغرافيا، والموقع. ذلك أنّ مَنْ يرى نفسه في حلزونٍ يزداد اتساعاً في البيت/الوطن ».(7)

إن الثقافة بشكل عام، ذات طبيعة دنيوية، وعليه تتبلور رؤية إدوارد سعيد النقدية للرواية الأوروبية، في إطار مفهومه للدنيوية. مفهوم كان قد عمل على تطويره في أبرز كتبه النقدية:((العالم والنص والناقد))، ذلك أن الثقافة بشكل عام، تنتمي في رأيه إلى هذا العالم ، وهي ذات طبيعة دنيوية، أي أنها تنتمي إلى عالم التجربة التاريخية. فالأدب وكل أشكال المعرفة والنشاط الإنساني عموماً، منخرط في هذه الدنيوية. وأن العالم الذي نعيش فيه، يجب أن يُعاش، وأن يُفهم ويُدرس، لكن في دنيويته لا في آخريته.

ويُلح إدوارد سعيد، على ضرورة قراءة وتأويل السرد الروائي الأوروبي، لاسيما في القرنين الثامن والتاسع عشر، على ضوء التجربة التاريخية التي رافقتها. والمقصود بالتجربة التاريخية،

التي يتحدث عنها سعيد، هي الوقائع الاستعمارية التي طبعت هذه الفترة، حيث غدت « الرواية الأوروبية في القرن التاسع عشر هي بشكل رئيسي شكل ثقافي معزّز لسلطة الواقع الراهن. لكنه أيضاً منقّ مرهف له، ومفصح عنه ».(8)

ويلفت إدوارد سعيد الانتباه، إلى تعامي نقاد الرواية الأوروبية، عن رؤية الوقائع الاستعمارية، المبثوثة في صفحات تلك الروايات. ومن بين هؤلاء النقاد الذين يجلّهم إدوارد سعيد كثيراً؛ على سبيل الذكر لا الحصر رايموند ويليامز (Raymond Williams)، ومع كونه أحد روّاد النقد الثقافي في الفكر الغربي، إلا أنه تحاشى في كتابه الشهير ((الثقافة والمجتمع)) (Culture and Society)، ذكر التجربة الامبريالية في الرواية الإنجليزية. على الرّغم من أن الإمبراطورية الإنجليزية وإمبرياليتها، لم تعد أمراً هامشياً أو خفياً بالنسبة للمجتمع الإنجليزي، بل أصبحت مكوناً من مكونات النظام السياسي والاجتماعي الإنجليزي في تلك الفترة.(9)

ومهما كانت تفسيرات سعيد، لعمل هؤلاء الروائيين وتورّطهم في تدعيم ركائز الامبريالية، أو لإغفال منظرين آخرين، وتعاميهم عن رؤية شِراك الإمبراطورية المنصوبة في كل مكان، في إفريقيا وفي آسيا وشبه القارة الهندية وفي امريكا الجنوبية. فقد قام إدوارد سعيد، بما يتوجب عليه فعله، كناقد هاوٍ ودنيويّ ومقاومٍ، مهمته كانت قراءة أعمال أدبية وفنية من منظور مختلف. منظور جلب له " عُشّ الدبابير الكولونيالي " كما يقال، لما تضمّنته تلك القراءة، من فضح وتعرية لعورات أولئك الذين تواشجت أعمالهم الأدبية، بفكرة الإمبراطورية وبفظاعات الامبريالية وجرائم الكولونيالية.

يقول كمال أبو ديب، في مقدمة ترجمته لـ ((الثقافة والامبريالية))، أن تفرّد إدوارد سعيد « في قراءته لفيردي، وجين أوستين وكامو وغيرهم، يسلخ عن عمالقة الفكر الغربي الإهاب المفتعل، الذي تلفّعوا به، ويكشف منظورهم الامبريالي الحاقد، المتعالي اللاإنساني، المشبع بروح العنصرية والتفوقية والاستغلال الاقتصادي والعرقي ».(10)

1)- جوزيف كونراد والوعي الكولونيالي في رواية "قلب الظلام" :

يعد جوزيف كونراد Joseph Conrad (1857- 1924)، الروائي الأقرب أو المفضل لدى إدوارد سعيد، الذي يتكرر ذكره باستمرار في جل أعماله. علاقته بهذا الكاتب تعود إلى البدايات، حين أنجز حوله سعيد رسالته لنيل الدكتوراه، التي تمحورت حول رسائل كونراد، ورواياته القصيرة، والتي حوّلها فيما بعد، إلى أول كتاب له، تحت عنوان: جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية " Joseph Conrad and the fiction of autobiographie "(1966). وقد وجد

سعيد في سيرة كونراد الذاتية، تقاطعاً مع سيرته الشخصية، وبالتالي فإن اختياره لهذا الروائي البولندي لأصل لم تكن مجرّد صدفة، « هذا الكاتب الذي ظل يثيرني [يقول إ. سعيد] بل إنّي مهووس به من نواحي عديدة ».(11)

وكونراد هو واحد من الروائيين الأساسيين، الذين يتخذهم إدوارد سعيد مدوّنة، يُظهر من خلالها انخراط الرواية والروائيين الأوروبيين في الفضاء الإمبراطوري، وهو من أكثر الكتّاب تجسيداً، للموقف الامبريالي خلال القرن التاسع عشر، انطلاقاً من أعماله الروائية العديدة، التي قاربت ثلاثة عشرة رواية، وعدداً من القصص القصيرة. غير أن روايته قلب الظلام" Heart of Darkness " (1899)، وعلى الرغم من حجمها الصغير، إلا أنها نالت شهرة عالمية، ووضعت كونراد في طليعة كتّاب الرواية، في النصف الأول من القرن العشرين بشكل خاص، وتشهد أحداث هذه الرواية، على ممارسات السيطرة وعمليات الإخضاع الامبريالي في إفريقيا. وتكمن أهمية كونراد بالنسبة لسعيد أن «كل ما يستطيع كونراد أن يراه، هو عالم خاضع كلياً للغرب الأطلسي، عالم لا تؤدي فيه أيّة معارضة للغرب، إلا إلى تأكيد قوّة هذا الغرب الخبيثة الماكرة ».(12)

ورغم أن كونراد كان صغيراً، وأنه كان حاد النقد للاستعمار البلجيكي، وبعيداً عن مهاجمته للإمبريالية في الصفحات الأولى من قلب الظلام، فقد ظل يمجّدها بدون أدنى شك.(13) ولقد وجد إدوارد سعيد، أن تأثير كونراد كان بالغاً لمعظم الأوروبيين، وأن نصّه المذكور، مثّل جزءاً من السعي الأوروبي للتشبث بإفريقيا، والتفكير بها، والتخطيط لحكمها.(14)

وتحكي الرواية عن رحلة إلى نهر الكونغو، في دولة الكونغو الحرة، في قلب إفريقيا، من خلال راوي القصة "تشارلز مارلو" (Marlow). يقص "مارلو" قصته لأصدقائه البحارة، على متن القارب "نيلي" الذي يرسو في نهر التايمز في لندن. في هذا المحيط الذي يمثّل إطاراً مشهدياً لقصة "مارلو" مع تاجر العاج "كيرتز" (Kurtz)، والتي تمكن من خلالها جوزيف كونراد، من خلق مقارنة بين لندن وإفريقيا، كأماكن للعبودية والتخلّف وللظلام، كما تشير إليه رمزياً - وحتى فعلياً - عنوان الرواية.

ومن خلال " كورتز " و "مالرو "، أبرز شخصيات رواية " قلب الظلام "، يجسد كونراد سيادة الرّجل الأبيض على الرجل الأسود. فقد استطاع ذلك القادم من وراء البحار، أن يعيد ترتيب وتمثيل ذلك الفضاء المتوحش، بل تفكيك العالم القديم بأسره، وإحلال عالم جديد محلّه، كل ذلك من خلال سردية روائية، حُبِكت بإحكام لتعزيز الرؤية الامبريالية.

لقد سبق وأن صاغ هومي بابا " Homi Bhabha " تلك العلاقة، التي تضع الأمة والسردية مقترنتين معاً، صياغة ممتازة في كتابه: الأمة والسرد (Nation and Narration). وقد يصل بالأمة المنبثقة في السرد الروائي، إلى أن تحيله واقعاً فعلياً في إفريقيا، وأن تستبيحه كإحدى ممتلكات الرّجل الأبيض. أما عن مصير السكان الأصليين، يقول كونراد « نحن الغربيين سنقرر من هو المواطن الأصلاني الجيّد ومن هو السيئ، لأن الأصلانيين جميعاً لا يملكون وجوداً كافياً إلا بفضل اعترافنا "بهم"، فنحن خلقناهم ونحن علّمناهم أن ينطقوا ويفكروا ».(15)

ويكتسي الظلام " The Dark " في عنوان الرواية، دلالة رمزية في قراءة سعيد لهذه الرواية، فالظلام لا يرمز للمكان - إفريقيا - فحسب، بل يرمز تقريباً إلى كل شيء في هذه القارة؛ يرمز إلى بشرتهم، وإلى مزاجهم، وتفكيرهم، وسلوكهم وطقوسهم، فكل ما وجده الرّجل الأبيض في إفريقيا؛ باستثناء العاج، أسود وسوداوي.

ومن هذا المنطلق، كان الحضور الأوروبي بمثابة هبة، رغم أنها كبّدت الأوروبيين مشاق كثيرة، وصعوبات وصراعات مريرة، قامت الرواية بتصوير تفاصيل أحداثها ومغامراتها، كل ذلك ليجلب الرّجل الأبيض معه الأنوار، لاختراق ظلمة القارة السوداء، في إطار المهمة المُلقاة على عاتق الأوروبي، كحامل لرسالة الحضارة والتنوير.

وينبه إدوارد سعيد، إلى أن جوزيف كونراد ليس مجرد كاتب روائي، إنه يتميز عن غيره من الكتَّاب الاستعماريين المعاصرين له، بأنه كان واعياً وعياً ذاتياً بما كان يقوم به، فهو مهاجر من أصل بولندي، عانى ما عاناه قبل أن يُحوّله الاستعمار إلى موظف إمبريالي.(16)

كما أن روايته " قلب الظلام "، مثلها مثل رواياته الأخرى، ليست مجرد سردية مباشرة، أو قصة تحكي عن مغامرات " مالرو "، فهي مسْرَحة لمالرو نفسه كما يقول سعيد، قَصَد كونراد من خلالها التأكيد، على أنه ما كان مجرّد مغامرات فردية في سردية روائية، قد أضحت وقاع فعلية، مع انبثاق الإمبراطورية البريطانية العظمى.

إن الدلالة الحقيقية في رواية كونراد، وما يتحدث عنه على لسان " كورتز " و" مالرو "، هي في واقع الأمر السيادة الامبريالية، سيادة الأوروبيين البيض على الأفارقة السّود وعاجهم، وسيادة أوروبا التنوير والحضارة، على إفريقيا البدائية المظلمة. لقد جلب كونراد معه الضّياء والنور من أوروبا، ليخلّص به إفريقيا من ظلامها الحالك، حيث تزخر رواية قلب الظلام، بعبارات الرسالة التّحضيرية (La Mission Civilisatrice)، وإحضار النور إلى الأمكنة والشعوب المظلمة في العالم، وهو يعي بشكل تام أنّ ذلك المسعى، يتطلّب أن يُستعمَر العالم.

لكن عجز كونراد ومحدوديته المأساوية، كما يقول إدوارد سعيد « هي أنه لم يكن قادراً، رغم أنه رأى بوضوح أن الامبريالية على مستوى أول كانت جوهرياً سيطرة وسرقة الأرض خالصتين، على أن يستخلص عندئذ أن الإمبريالية ينبغي أن تنتهي كي يعيش " الأصلانيون " حياتهم أحراراً من السيطرة الأوروبية ».[17]

ولم يكن في مقدور كونراد، أن يَمنح الأصلانيين حرّيتهم، رغم وعيه التام بأفاعيل الامبريالية، التي استعبدتهم واستعبدته هو أيضاً، على الرغم من أن كونراد، هو بشكل أو بآخر، أحد المنفيين وضحايا هذا العالم. وتفسير ذلك - على ما يبدو - هو حرص كونراد اللاَّواعي، على البقاء وفياً ومنسجماً مع منفاه الإمبراطوري، التي برع في الكتابة بلغتها أكثر من الإنجليز أنفسهم. إن أفارقة كونراد الذين زرعهم في قلب الظلام، ليس في وسعهم إلا أن يكونوا كما قرأ عنهم كونراد، وأن يتصرّفوا حسب مقتضيات السرد وأعرافه، مع مسحة من تجارب المؤلف الشخصية. لقد أمن سعيد بأنه ليس ثمة شيء اسمه التجربة المباشرة، في الكتابة عن افريقيا أو الافريقانية (Africanism)، ليس هناك انعكاس للعالم في مثل هذه السرديات، « فقد تأثرت انطباعات كونراد عن إفريقيا بشكل حتمي بمخزون المأثورات الشعبية والكتابات عن إفريقيا ».[18]

إن إحدى استنتاجات إدوارد سعيد، هي أن الرواية الأوروبية، ما كان لها أن تكون في غياب الإمبراطورية، وأن قراءتنا لهذه للرواية، ينبغي أن تأخذ دائماً تلك الخلفية الامبريالية بعين الاعتبار، إذا ما أردنا النفاذ إل لُبّ الرواية الأوروبية ونزوعها، وفهم علاقتها بالفضاء الذي نشأت فيه، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. والحقيقة أن «الرواية الأوروبية كما نعرفها اليوم، ما كانت ستوجد في غياب الإمبراطورية [...] فسنرى الالتقاء - البعيد تماماً عن أن يكون عرضياً – بين أنساق السلطة السردية المشكلة للرواية، من جهة، وتشخّص عقائدي يتبطّن النزوع نحو الإمبريالية، من جهة ثانية ».[19] وهذه الحقيقة، لطالما عمل النقاد الأوروبيون، على إخفائها والتستر عليها.

2)- جين أوستين، ومزايا الامبراطورية في رواية "روضة مانسفيلد":

رواية "روضة مانسفيلد" (Mansfield Park) للروائية الإنجليزية جين أوستين (Jane Austen)، من الروايات التي حظيت كذلك باهتمام لافت، من قبل إدوارد سعيد، لأنها تدعم بقوّة افتراضاته حول النزوع الإمبريالي، الذي طبع الثقافة والرواية الأوروبيتين تحديداً. وهي تمثل إحدى النماذج، التي يُحاجج من خلالها سعيد، على إمكانية الالتقاء أو التعايش، بين

الأفكار والقيم الانسانية، جنباً إلى جنب، مع الممارسات الإمبريالية والقهر الكولونيالي، في مفارقة ضدّية لاذعة، يصعب على المرء تفهّمها.

وإذا كان هناك من يجب أن نحمّله مسؤولية مآسي الاستعمار، وفظاعات الرّق وغيرها من ممارسات الإمبراطورية، فهل يجوز القول بأن الثقافة عموماً، وجماليات السرد الروائي بصفة خاصة، هي من سبّبت الإمبريالية؟ وهل الروائيون هم من يتحمّلون مآسي الشعوب المستعمرة، وجرائم الكولونيالية؟ ثم ماهي مسؤولية الروائي عما يحدث فيما وراء البحار؛ في مستنبتات قصب السكر، ومزارع القطن، ومناجم العاج وفي المحميات ومتنزهات البورجوازية مثل روضة مانسفيلد، التي تسرد جين أوستن أحداثها، بجمالية فائقة الدقة ؟

قد لا يتحمّل الروائي المسؤولية المباشرة عما يكتب عنه، وما ينتج عن كتاباته الجمالية من آثار، غير أن اللّوم الذي يوجّه للروائي من موقعه كمثقف، هو أنه معنيٌّ بالعملية الكولونيالية، التي يكتب عنها، في جوانبها الإنسانية على الأقل، التي يسرد تفاصيلها بدقة، خاصة وأن تلك التفاصيل المسرودة، لا تنبع - في أغلب الأحيان- من الواقع الذي يعاينه الكاتب، بل تنبثق من مخزونه التّخييلي. فكيف بنا والحال هذه، أن نعفي الناقد والأديب، من مسؤولية المأزق الثقافي، الذي وقعت فيه الرواية الأوروبية. وما « أودّ أن أُلاحظه [يقول إدوارد سعيد] هو أنّ هذه الوقائع الاستعمارية والامبريالية، تُغْفَل في النقد الذي أصبح - فيما عدا ذلك الإغفال - متقناً وبارعاً براعة خارقةٌ، في العثور على موضوعات لمناقشتها ».[20]

و"مانسفيلد بارك" (1814)، كما يحلو للبعض ترجمتها، هي ثالث رواية تنشر لأوستن، وأخلاقيات هذه الرواية، هي بشكل عام الأكثر إثارة للجدل، من بين أعمالها الرئيسية الأخرى، وهي حسب إدوارد سعيد، من أكثر روايات أوستن صراحة، في توكيداتها العقائدية والأخلاقية. وتدور أحداث هذه الرواية في جزيرة "أنتيغوا" (Antigua)، إحدى جزر الكارايبب (les Caraïbes). وهي عبارة عن "مستنبتة لقصب السكر" كما يصفها إدوارد سعيد، وقودها العبيد، ومالكها هو "السّير توماس برترام" (Sir Thomas Bertram)، أما الشخصية الرئيسية في هذه الرواية، هي السيّدة "فاني برايس" (Fanny Price)، التي تتحوّل مع مرور الوقت، من امرأة هامشية، بالكاد يكفي معاش زوجها الضئيل، لإعالة أسرة من سبعة أطفال، إلى السّيدة الروحية لروضة مانسفيلد.

لقد اشار إدوارد سعيد، إلى أن ريموند ويليامز كان محقاً، عندما وصف روايات أوستن، بأنها تعبّر عموماً عن "نوعية حياة قابلة للنَّوال" (attainable quality of life)، فهي توفر

مناخاً للعيش برفاهية، من حيث وفرة الأموال، والممتلكات المكتسبة، والتمييزات الأخلاقية المقامة، وغيرها من الفضائل، التي ما من شيء قادر على توفيرها، إلا الإمبراطورية.(21)

وهذا يعني أنه يجب الاعتراف بأن للإمبراطورية مزايا كثيرة، فهي كفضاء يوفّر لمعمّريه مكاناً للتملّك والاستمتاع، يستحق العناء، ولو كان قصيّاً بل غير معروف أحياناً. ولهذا يُسهب إدوارد سعيد في ذكر فضائل الإمبراطورية ووظائفها، ومواصفات عُمّارِها أو معمّريها، كونهم أناس غير عاديين، وهم في الغالب بشر شاذّون أو مرفوضون، باحثون عن حسن الطالع - كما يقال - أو لجمع المال، والمغامرة الجنسية. إنه شبه منفى، لمن قاموا بأعمال مشينة، وملجأ للمُهلهلين الهَرِمين، والباحثين عن تعويض ثرواتهم التي أضاعوها. وباختصار، فإن المستعمرات هي ممالك لكل الإمكانيات والاحتمالات.(22)

هذا ما ينطبق على مستعمرة "أنتيغوا"، التي تمثل أنموذجاً للفضاء الإمبراطوري، وروضة مانسفيلد مثلها مثل روايات كثيرة أخرى، هي في نظر سعيد، نتاج لسلسلة من أفعال الإزاحة، وإعادة ترتيب المكان، وموضعة الفضاء الجغرافي، حتى تتحوّل "أنتيغوا" ليس إلى مجرد مستعمرة فحسب، بل إلى مكمّل أو إمتداد للمكان الإنجليزي، حتى تصبح في نهاية الرواية، "فاني برايس" بنتُ الأخت الفقيرة والمنبوذة، التي أُرسلت للعيش مع أقاربها الأثرياء في "أنتيغوا"، لتصبح في نهاية المطاف، السيّدة الروحية لمانسفيلد بارك.

وفيما يتعلّق بروضة مانسفيلد ذاتها، فإن جين أوستين قد بدت لإدوارد سعيد، أكثر تورّطاً فيما يسميه بـ"مُعقلِنات" التوسع الإمبريالي، حتي تصير الفضاءات القصية، بل غير المعروفة للأوربيين أحياناً، مثل "أنتيغوا" وروضة مانسفيلد تحديداً، كامتداد للإمبراطورية في إطار مشهدي، قد يكون أقل استحساناً من لندن أو بورتسموث، لكنه مكان يُنتج بضاعة يستهلكها الجميع، فمع أوائل القرن التاسع عشر، كان كل فرد بريطاني يستهلك السكر.(23)

لقد أفاد إدوارد سعيد، بأنه استغرق وقتاً طويلاً في قراءة وتحليل روضة مانسفيلد، ولقد حرص كما يقول، على أن تكون قراءته وتأويلاته متأنية، في إطار المنظور الكوني الذي تطرحه جين أوستن وشخصياتها ضمنياً. وبعد كل حساب، يُعلن إدوارد سعيد خيبة أمله في جين أوستين، لأن « المرء لا يستطيع، بعد أن قرأ روضة مانسفيلد، كجزء من بنية مشروع امبريالي متوسّع، أن يعيدها ببساطة إلى موقعها ضمن التراث المكونن من "الروائع الأدبية العظيمة" - الذي تنتمي إليه بكل تأكيد - وأن يكتفي بذلك. بل الأحرى أن الرواية، كما أعتقد، تفتَح باطراد،

وإن يكن بطريقة غير ناتئة، مدى واسعاً عريضاً من الثقافة الامبريالي الداخلية، التي ما كان اكتساب بريطانيا اللاحقُ للأراضي، سيكون ممكناً بدونها ».(24)

لقد حاول إدوارد سعيد أن يُظهر، أن النظام الأخلاقي لا ينفصل في الحقيقة، عن قاعدته الاجتماعية وظروفه التاريخية. وهذا ما يفسّر أن أوستن، ظلت حتى الجملة الأخيرة، تثبت وتكرر عملية التوسع الجغرافي، وما يرافقه من تجارة وإنتاج واستهلاك وغيرها. لقد فشلت أوستن، في الاعتراف أو في مجرّد ذكر، أن روضة مانسفيلد كانت قائمة فقط، بفضل عمل العبيد. وهذا «لكونها بيضاء، ذات موقع امتيازي، عديمة الحساسية، متواطئة. أجل إنّ أوستن انتمت إلى مجتمع مارسَ اقتناء الرقيق ».(25)

وهكذا تتراجع القيم الأخلاقية، وتضعف المعايير الجمالية، أمام فضائل الإمبراطورية ومزاياها، ومنافع الرق والإمبريالية. وبالتالي فإن أعمال أوستن اليوم، تشهد انتباهاً عالمياً، بعد أن كشف إدوارد سعيد، تورّطها في مساندة العبودية، حتى أن محرر أحد طبعات الرواية، من دار بينجوين للنشر (Penguin Books) كتب في المقدمة، أن سعيد وصف رواية "مانسفيلد بارك"، بأنها جزء من مشروع توسيع الاستعمار.

3)- ألبير كامو والتجربة الإستعمارية الفرنسية:

تختلف الإمبراطورية الفرنسية عن مثيلاتها من الإمبراطوريات الأخرى، والانجليزية بصفة خاصة، لكونها المنافس الأول لفرنسا على امتلاك الأراضي فيما وراء البحار. لقد تمكنت الإمبراطورية الفرنسية من الاحتفاظ بأقاليمها ومستعمراتها على مدى ثلاثة قرون، كما اتّسمت رؤيتها الاستعمارية بتوظيف العلوم والمعارف المختلفة، وتطوير أساليب هيمنتها على الجغرافيا، وسيطرتها على السكان الأصليين. وزيادة على افراطها في القوة والبطش، فقد استخدمت فرنسا من سمّاهم إدوارد سعيد بالدعائيين والروائيين وفلاسفة وحكماء، متواشجين بالهوية القومية الفرنسية.

ويشير إدوارد سعيد بأن العملية الكولونيالية الأكثر شراسة، والتي لا هوادة فيها، قد وقعت في الجزائر منذ 1830م، لتحويل الجزائر إلى مقاطعة فرنسية، والدّفع بالجزائريين إلى مرتبة دُنيا من الهامشية والفقر، حيث أُنتزِعت أملاكهم وأحلّوا محلها مُلاّك جُدد من الأوروبيين.

ولد ألبير كامو (Albert Camus) عام 1913م في قرية "موندوفي" (Mondovi)، من أم إسبانية كانت عاملة بُيوتٍ، وأبٍ تنحدر أصوله من مدينة "بوردو"(Bordeaux) الفرنسية،

الذي عمل كمراقب لأقبية حفظ الخمور في "موندوفي". وتقع هذه القرية على بعد ثمانية عشرة ميلاً، من مدينة "بون" (Bone) - عنابة حالياً - وكان الاستعمار الفرنسي قد أسس هذه القرية عام 1849م، واستوطن فيها عمال حُمر[***] شحنتهم حكومة باريس ومنحتهم أراضي صادرتْها من ملاّكها الأصلانيين الجزائريين. وتُظهر أبحاث "بروشاسكا" (David Proshaska) الذي يقتبس إدوارد سعيد من كتابه[****] تواريخ كثيرة، منها أنّ "موندوفي" كانت عبارة عن قرية فلاحية أو مُستنبَتة لإنتاج الخمور، تابعة لمدينة "بون".

لقد وجد إدوارد سعيد في ألبير كامو ضالته النقدية، معتبراً إياه على قدر كبير من الثراء والأهمية، في سياق بحثه عما يرجح وشائج الرواية، بالإمبراطورية الفرنسية هذه المرَّة، ففي قراءاته لروايات كامو، يأخذ سعيد بعين الاعتبار، الخلفية التاريخية للاستعمار الفرنسي في الجزائر على وجه الخصوص. استعمار تمّ تفكيكه واقتلاعه بثمن باهض، لم يسبق أن دفع مثله مستعمَر آخر، لنيل استقلاله الوطني. وفي ظل هذه الظروف، وجد سعيد في كامو شخصية امبريالية متأخرة جداً، وهو ما يزال باقياً إلى اليوم، بوصفه كاتباً " كوني النزوع" تضرب جذورُهُ في عمق عملية استعمارية صارت من الماضي.[26]

يُقدّم إدوارد سعيد كامو، على أنه الكاتب الوحيد من الجزائر الفرنسية، الذي يمكن اعتباره مؤلفاً ذا مقام عالمي، استبعد النقاد علاقته بالحقائق الامبريالية. لكن كامو من وجهة نظر إدوارد، مشدود بعمق إلى باطن الكولونيالية، بل « كان كما كانت جين أوستن قبله بقرن من الزمان، روائياً أُسقِطت من أعماله حقائق الواقع الامبريالي، الماثلة في هذه الأعمال، مثولاً واضحاً بانتظار أن تُرى ».[27]

وفي السياق ذاته، يقول كمال أبو ديب في مقدمة ترجمته لـ « الثقافة والإمبريالية » بأن قراءة سعيد « لكامو لهي أخطرُ ما عرفتُهُ من قراءات، تسلخ عن كامو سرّيتَهُ وسِحرَ ما لفعه به القارئ الغربي من ولع بالشرط الإنساني؛ بل إن سعيد يحيل هذا التعبير إلى مصدر للسخرية اللاذعة، إذ يكشف أن في الجوهر من عمل كامو، الدفاع عن الامبريالية الفرنسية، وإلغاء التاريخ الجزائري السابق على استعمار فرنسا ».[28]

ويعقد إدوارد سعيد الصّلة، بين ألبير كامو وجورج أورويل (George Orwell)، فشُهرتهما تعود إلى طبيعة القضايا التي كتبا عنها، والأهم من ذلك، أن أسلوبهما الشيّق، قد تميّز بالوضوح غير المتكلّف، في صياغاتهما السياسية، وبالابتعاد عن كل مُشاكَلة أو تعقيد. ويُذكِر إدوارد سعيد في هذا الخصوص، بما قاله "رولان بارت" (Roland Barthes) في كتابه "درجة

صفر الكتابة" (Le Degré zéro de l'écriture) في توصيف هام لكتابات كامو، بأنها: "كتابة بيضاء".

وبنفس الطريقة - تقريباً - التي خَلقت بها أعمال جورج أورويل، انشقاقاً كبيراً بين مثقفي اليمين واليسار، إلى درجة أن كلاهما يدّعي-كل من جهته - انتماء أورويل إليهم، فهو لا يزال متأرجحاً بين كونه محافظاً مجدّداً أو بطلاً يسارياً. كذلك الأمر بالنسبة لسرديات ومواقف كامو، التي بَدت في الثقافة - الأنجلو- أمريكية على الأقل - بعيدة عن كونها جزءا من الامبريالية. إن كامو بدوره لا يزال « يُقتبَس ناقداً، ومفكراً سياسياً أخلاقياً، وروائياً يثير الاعجاب في مناقشات تدور حول الإرهاب والاستعمار ».[29]

لقد أثارت روايات كامو، نقاشات عديدة وقراءات مختلفة، لكن أغلبها يصرف الأنظار عن ابراز وشائجها بالفضاء الكولونيالي والبعد الامبريالي، بل اعتبرها بعض النقاد رمزاً لمقاومة النازية والفاشية. من بين هؤلاء: رولان بارت وراشيل بسبالوف وميشال أونفراي وغيرهم من « الذين أشاروا إلى البعد الرمزي لتاريخ غزو الطاعون لمدينة وهران، والذي ذكّر تاريخياً بـ" الطاعون الأسود للنازية "، مستعرضاً على نحو مجازي مختلف مواقف الانسان اتجاه الشر».[30]

وبحكم نزعة كامو الوجودية، فقد سعى آخرون إلى البحث عن الروابط، بين رواياته وفلسفته الوجودية، خاصة في رواية "الغريب" التي جسّدت السؤال الوجودي، والنزوع إلى العدمية. ومن خلال "ميرسو" (Meursault) يجسد كامو نموذج الشخصية المتمرّدة على سلطة النظام والقانون، وحتى في محاكمة "ميرسو" « لم تكن بسبب ما اقترفه - أي قتله للعربي - بل بسبب ما كان هو عليه: أي إنسان رفض الخضوع لقوانين المجتمع وللغته ».[31]

وحتى في حالات ما يعتبره بعض النقاد الغربيين، سلخاً ونزعاً للسرية عن كامو، فإن تلك العمليات تعمل في الحقيقة - ومن جهة أخرى - على تخليص كامو مما هو أسوأ. ويقدم إدوارد سعيد مقطعاً معبّراً اقتبسه من " كونر كروز أوبراين" (Conner Cruise O'Brien) بدا لأول وهلة، كأنه نقد لاذع لكامو، يقول فيه أوبراين:

> **قد لا يكون كاتب أوروبي آخر في زمنه خلّف ما خلفه كامو من عميق الأثر على خيال جيله والجيل الاحق له، وعلى وعيهما الأخلاقي والسياسي في الوقت ذاته. لقد كان أوروبياً بشكل حاد، متوتر، لأنه انتمى إلى حدود أوروبا، وكان يعي وجود تهديد داهم. لقد أومأ التهديد أيضا إليه. وقد رفض، لكنه لم يرفض دونما صراع.**

ما من كاتب آخر، حتى كونراد نفسه أكثر تمثيلاً للوعي والضمير الغربيين في العلاقة بالعالم غير الغربي، والاحتدامية الداخلية لعمله هي تطوّرٌ لهذه العلاقة، تحت ضغط متزايد وبشجن متزايد. [32]

يقول إدوارد سعيد في تعليقه على هذا المقطع، المفعم بالطّمر والاخفاء، أن أوبراين بعد أن قام بكشف الروابط - غير القابلة للإخفاء - بين روايات كامو الأكثر شُهرة، والموقف الاستعماري في الجزائر، فإنه يقوم من جهة أخرى، بتحرير كامو وإخلاء سبيله، وكأن للزنزانة في السجن الأوروبي بابان، يقوم فيه أوبراين، بإدخال كامي من هذا الباب، وإخرجه من الباب الآخر.

إنّ كامو في مفهوم أوبراين، هو شخص "ينتمي إلى حدود أوروبا"، مع أن الجميع يعلم علم اليقين، بأن الرابطة الاستعمارية بين الجزائر وفرنسا، ليست مجرد رابطة بين أوروبا وحدودها، هذا من جهة. ومن جهة ثانية، فإن كونراد وكامو ليسا ممثلين لشيء عديم الوزن اسمه " الوعي الغربي"، بل هما يمثّلان في حقيقة الأمر، صميم "السيطرة الغربية" وعنفوان "هيمنتها" على العالم غير الأوروبي.

إن معارضة سارتر للسياسة الفرنسية، إبان حرب التحرير الجزائرية، كان بالنسبة إليه خياراً سهلاً وممكناً، مقارنة بموقف كامو، الذي لم يكن ذلك الخيار صعباً عليه فحسب، بل كان انخراطه في الصراع مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية، مسألة حياة أو موت. وتبريرات أوبراين أن كامو قد ولد وترعرع في الجزائر الفرنسية، وحتى عندما انتقل للعيش في فرنسا فقد بقيت أسرته هناك في الجزائر.[33]

إن تربية كامو المحض فرنسية في الجزائر، التي وصفها جيداً في السيرة التي وضعها هربرت لوتمان (Herbert Lottman)، كانت مثيرة لبعض التعاطف. كما حرص "ميشال أونفراي" (Michel Onfray) بدوره على تقديم صورة إنسانية عن الروائي ألبير كامو، في وصف جدّ مؤثر، كان مشحوناً بنزعة عاطفية وانفعالية، ركّز فيه أونفراي على ألبير: الطفل الفقير، اليتيم، المريض، الذي مكّنه تحديه من الخروج منتصراً في معارك الحياة. فمهما كانت الطبيعة الجماعية البائسة للاستعمار الفرنسي في الجزائر، فليس ثمّة بحسب أوبراين وأونفراي وغيرهما، ما يدعو إلى إلقاء تبعته على كامو.

لا ننسى أيضاً أن كامو نفسه، كان قد أصدر تقريراً مشهوراً قبل الحرب، عن بؤس المكان الذي يسبب معظَمَهُ الاستعمار الفرنسي، كما كتب نصاً مشهوراً عن البؤس في منطقة القبائل، ما جعل كامو حسب تعليق إدوارد « رجل أخلاقي في موقف لا أخلاقي ».[34] لقد عمل كامو في

معظم رواياته؛ كالغريب والطاعون والسقوط، على الاعلاء دائماً من شأن الذات ونضجها وصمودها الأخلاقي، لكن الأطر الاجتماعية والمواقف المشهدية، هي فقط التي كانت سيئة.

ويتساءل إدوارد سعيد، عن سبب اختيارات كامو لتلك الأطر المشهدية لجغرافية رواياته؛ "الغريب" و"الطاعون" ومجموعته القصصية القصيرة "المنفى والملكوت". لماذا كانت الجزائر تشكل الاطار المشهدي لسرديات، تمثل فرنسا بشكل عام، وفرنسا تحت الاحتلال النازي بشكل خاص، مرجعيّتها الرئيسية ؟ ويقترح سعيد إجابة أوبراين، الذي يؤكد بأن اختيارات كامو لم تكن بريئة، وأن كثيراً مما جاء في سردياته، وخاصة في محاكمته لـ"مُرسو"، كان إما تسويغاً لا واعٍ للحكم الفرنسي، وإما محاولة عقائدية لتجميله.

ويستغرب إدوارد سعيد، من أن روايات كامو ما تزال حتى بعد حوالي نصف قرن من صدورها، تُقرأ كحكايات مَثَلِيّة عن الشرط الانساني، شرط أغمض كامو عينيه عن رؤيته، حتى بعد استباحته لدم العربي، لأنه فاقد للشرط الإنساني « صحيح أن مُرْسو يقتل عربياً، بيد أن هذا العربي لا اسم له، ويبدو دونما تاريخ، دع عنك أن يكون له أمٌّ وأبٌ؛ وصحيح أن العرب يموتون بالطاعون في وهران، بيد أنهم دون أسماء كذلك ».[35]

وكما لا يخفى على كل متتبع للشأن الثقافي الفرنسي في تلك الفترة، الخصومة أو القطيعة التي وقعت بين الصديقين الوجوديين سارتر وكامو، وما افرزته من سجالات حادة، دارت بينهما وبين أتباعهما. وكان سارتر على ما يبدو، أكثر تمرداً بالمعنى الوجودي، متقدماً على كامو سياسياً، خاصة فيما يتعلّق « بمواقفه الشجاعة تجاه الجزائر وفيتنام، ونشاطه لصالح المهاجرين، وانضمامه إلى الماويين ومشاركته الجريئة في تظاهرات الطلبة في باريس 1968».[36] وكان سارتر من بين الموقعين على ذلك البيان أو ما سمي بـ" مانيفستو الـ121"، الذي يحرّض جيش العاملين على ترك الخدمة. كل ذلك كان يثير غضب كامو، لأن سارتر تحلى بالشجاعة، في إعلان موقفه عن حقيقة الوضع في الجزائر، حقيقة أغمض هو - كامو - أعينه عنها.

لقد نشر ألبير ميمي (*****)مقالاً قصيراً بعنوان ((كامو، أو المستعمِر حسن النّية))، ينتقد فيه ألبير كامو بشدة، أوضح فيه أن عجز كامو عن التحدّث عن شمال افريقيا، لأنه وافد من هناك، وقد تجلى ذلك صمتاً، وأن كل ما يمس شمال افريقيا، يصيب كامو بالشلل.

وبينما كان الفرنسيون يقرأون هذا المقال في فرنسا، كان كامو يتسلّم جائزة نوبل، وفي اليوم الموالي للحفل، أي في 11ديسمبر1957، التقى كامو بعدد من طلاب جامعة استوكهولم، وحدث أن حاصره طالب جزائري، بانتقادات حول موضوع الجزائر، استفزه ذلك الشاب

وقاطعه مراراً. وهنا، كسر كامو غاضباً حاجز الصمت، إزاء موقفه من القضية الجزائرية قائلاً: « دِنْتُ دائماً وأبداً الإرهاب. ويجب أن أُدين أيضاً الإرهاب العشوائي، في شوارع الجزائر- على سبيل المثال - الذي يُمكن في يوم ما، أن يضرب أمي أو أسرتي. إنني أؤمن بالعدالة، ولكنّني سأدافع عن أمي قبل دفاعي عن العدالة ».(37)

لقد كان هدف إدوارد سعيد واضحاً، من قراءاته وتأويلاته لروايات كامو، التي أفصح عنها مراراً وتكراراً، حتى لا يُفهم انتقامياً أو بأنه يسعى إلى لوم كامو، عن إخفائه أموراً وحقائق عن الجزائر في كتاباته، حيث يقول: « ما أريد أن أفعله هو أن أعاين قصص كامو كعنصر من الجغرافيا السياسية الفرنسية في الجزائر ».(38)

وما قام به كامو، كان أكثر مما توقعه سعيد، وأفضل مما قام به أي كاتب آخر. فقد كان كامو بالنسبة لإدوارد سعيد، مفعماً بحساسية استعمارية مفرطة، فقد عمل عبر كتاباته وخاصة "الغريب" على تجاهل من يسميهم بالعرب، واقصاء التاريخ السابق باسره لاستعمار فرنسا، وتدميرها للدولة الجزائرية، وفي نهاية المطاف « وقف كامو في سنواته الأخيرة يجهر علناً، بل وبحدّة، معارضاً لمطالب الوطنيين الجزائريين بالاستقلال، فقد فعل ذلك، بالطريقة ذاتها التي كان قد مَثَّل بها الجزائر، منذ بداية حياته الفنية ».(39)

خلاصة:

لقد تمكن إدوارد سعيد، من خلال قراءاته وتأويلاته المثيرة للجدل، من إماطة اللثام عن المأزق الذي وقعت فيه الثقافة الغربية بصفة عامة، والرواية الأوروبية بشكل خاص. ثقافة لطالما ادعت لنفسها، أولوية الدفاع عن الحرية وعن سائر القيم الإنسانية، لتتضح بأنها مجرد استراتيجية أو نظام سلطوي، ينزع للتمدد فيما وراء البحار، والسيطرة على أراضي وأقاليم نائية، ولكنها غنية.

لقد أظهر سعيد كيف أن الإسهام السردي، في شكله الروائي تحديداً، لم يستطع في الغرب أن يكبت الأحاسيس والمشاعر الإمبريالية الأشد عدوانية، كما أن الخصائص الشكلية والمضامين الجمالية، التي أبهر بها القارئ الغربي - وحتى العربي - تنتمي في العمق إلى تشكيل امبريالي، وإلى بنية سلطوية أو تسلّطية تجذرت في الفكر الغربي، كفكر تمركزي، عملت كل خطاباته على تعزيز الهيمنة الإمبريالية على العالم.

إن إزاحة الستار عن المزاعم الإنسانية، والروح التّنويرية، التي تسترت خلفها الثقافة الغربية، تطلّب من سعيد، تجاوز الطروحات النقدية الكلاسيكية، والإلمام بعدة حقول معرفية متباينة، التي تمكن من صهرها، في بوتقة النقد الثقافي المقارن، الذي يعدّ سعيد رائداً من روّده، ليتمكن من اتقان عمليات الحفر في البنى والأنساق، المشكلة لطبيعة الثقافة المتمركزة حول نفسها.

الهوامش:

*- برنارد لويس: مستشرف أمريكي معاصر، من أشد منتقدي إ. سعيد، وأعنفهم رداً على أطروحاته بأسلوب يتجاوز آداب النقاش والنقد العلمي، فهو لم يتوانى في نعته بـ : فاضح، ولامبالي وتعسفي وزائف وعبثي وطائش والجاهل بأبجديات البحث العلمي. نص برنارد لويس، ورد إدوارد سعيد عليه، نُقلا إلى العربية في سلسلة كتب: الثقافة المقارنة، الاستشراق، عدد 2شباط 1987بغداد.

1- إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى، ترجمة ثائر ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية(2007)، ص:224.

2- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة(2014)، ص: 66.

**- يقول إ. سعيد عن كتاب فرانز فانون: "المعذبون في الأرض" بأنه كتاب هجين، فهو جزئيا مقالة، وجزئيا قصة متخيلة، وجزئيا تحليل فلسفي، وجزئيا تاريخ حالات نفسية، وجزئياً حكاية ترميزية قومية، وجزئياً تسامٍ رؤيوي للتاريخ. - أنظر: إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، المصدر السابق، ص: 325.

3- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، المصدر السابق، ص: 85.

4- المصدر نفسه، ص: 126.

5- المصدر نفسه، ص: 98.

6- المصدر نفسه، ص: 66

7- المصدر نفسه، ص: 152.

8- المصدر نفسه، ص: 145.

9- المصدر نفسه، ص: 134.

10- المصدر نفسه، ص: 13-14.

11- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فوّاز طرابلسي، دار الآداب للنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى (2000) ص: 8.

12- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، المصدر نفسه، ص: 63.

13- مارتن غرين، الرواية الإنجليزية في القرن العشرين (نكبة الإمبراطورية)، ترجمة محمد العبد الله، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- سورية، الطبعة الأولى (2014)، ص: 79.

14- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، المصدر نفسه، ص: 22.

15- المصدر نفسه، ص: 63.

16- المصدر نفسه، ص: 93.

17- المصدر نفسه، ص: 99.

18- المصدر نفسه، ص: 136.

19- المصدر نفسه، ص: 138.

20- المصدر نفسه، ص: 133.

21- المصدر نفسه، ص: 151.

22- المصدر نفسه، ص: 132.

23- المصدر نفسه، ص: 157.

24- المصدر نفسه، ص: 161-162.

25- المصدر نفسه، ص: 162.

***- كلمة "عمال حُمرٌ" أو(Red laborers) للإشارة إلى اليساريين والشيوعيين، المزعجين سياسياً.

****- هذا الكتاب هو: Making Algeria French: Colonialism in bone, 1870-1920. -

26- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، المصدر نفسه، ص: 233.
27- المصدر نفسه، ص: 232.
28- المصدر نفسه، ص: 13.
29- المصدر نفسه، ص: 233.
30- Mustapha Trabelsi, Albert Camus, l'écriture des limites et des frontières, sud édition, presses universitaires de Bordeaux, 2009, p: 168.

31- Robert Zaretsky, Camus élément d'une vie, tr; Céline Costanzo, Gaussen, 2010, P: 74
32- نقلا عن: إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، المصدر نفسه، ص: 233.
33- المصدر نفسه، ص: 234.
34- المصدر نفسه، ص: 234.
35- المصدر نفسه، ص: 236.
36- إدوارد سعيد، سارتر والعرب: ملاحظات هامشية، مقال في مجلة أوراق فلسفية، جامعة القاهرة(مصر)، العدد 14 (2005) ، ص: 35.
*****- ألبير ميمي(Albert Memmi) هو من أشهر الكتاب الفرنسيين من أصل تونسي، ولد في 15 ديسمبر 1920 بالعاصمة تونس، ينحدر من عائلة يهودية تونسية، درس في المدرسة الفرنسية ومعهد كارنو بتونس، واصل تعليمه العالي في جامعة الجزائر العاصمة، حيث درس الفلسفة ومنها انتقل الى السوربون في باريس، وهو أحد أصدقاء ألبير كامو، الذي قدّم أوّل وأشهر كتبه "تمثال الملح" (1953).
37- رونالد أرونسون، كامو وسارتر، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت)، 2006، ص: 274.
38- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، المصدر نفسه، ص: 236.
39- المصدر نفسه، ص: 238.

قائمة المراجع والمصادر:

المصادر:

1- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة(2014).

2- إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى، ترجمة ثائر ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية(2007).

3- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فوّاز طرابلسي، دار الآداب للنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى (2000).

المراجع بالعربية:

1- مارتن غرين، الرواية الإنجليزية في القرن العشرين (نكبة الإمبراطورية)، ترجمة محمد العبد الله، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- سورية، الطبعة الأولى (2014).
2- رونالد أرونسون، كامو وسارتر، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت)، 2006.

المراجع الأجنبية:

1 - Mustapha Trabelsi, Albert Camus, l'écriture des limites et des frontières, sud édition, presses universitaires Bordeaux, 2009.
2 - Robert Zaretsky, Camus élément d'une vie, tr; Céline Costanzo, Gaussen, 2010.

المقالات:

- إدوارد سعيد، سارتر والعرب: ملاحظات هامشية، مقال في مجلة أوراق فلسفية، جامعة القاهرة(مصر)، العدد 14 (2005) .